

الرواية الجزائرية بين الواقعية والعجائبية
رواية سرادق الحلم والفجيعة لعز الدين جلاوي - أنموذجا

*The Algerian novel between realism and miracle -a dream of dreaming
and bereavement of Ezz El -Din Jalauji as a model*

الدكتورة / عزاز سعاد

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة البليدة 2 (الجزائر)
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة لونيبي علي
s.azaz@univ-blida2.dz

تاريخ الإيداع: 2025/10/10 تاريخ القبول: 2026/02/11 تاريخ النشر: 2026/03/15

ملخص:

تسعى هذه الدراسة للوقوف على معمارية الكتابة الواقعية القائمة على الفنتازيا، لإثارة الفضول المعرفي؛ أين يحاول الروائي استنطاق المسكوت عنه في الواقع من خلال المتن الروائي وقد اخترت رواية: "سرادق الحلم والفجيعة" للروائي عز الدين جلاوي"، كأنموذج للتحليل، وهي واحدة من الروايات الجزائرية التي غاصت في أعماق المجهول، تدفع بالقارئ إلى الولوج داخل تلك العوالم السردية، لما فيها من تصارع القوى غير الطبيعية واللامعقولة مع الواقع الإنساني؛ إذن كيف تعبر الرواية عن الواقعي؟ وكيف تستلهم الرواية المادة العجائبية؟، وعليه نجد أن هذه الرواية تنبني على منظور خيالي محض، يتجاوز الواقع الجزائري بصورة عجائبية بحيث يظهر جليا العجائبي في شخصيات الرواية وذلك بعالمها العجيب الغريب.

كلمات مفتاحية: الواقع الجزائري، الرواية الواقعية، العجائبية، المتخيل، تحولات الفضاء.

Abstract:

This study seeks to determine the architecture of realistic writing, the existing fantasy, to stir cognitive curiosity, where the novelist tries to interrogate the silence in reality through the novelist, and I chose the novel "Dreaming and Thrice of the novelist Izz al -Din Jalauji" as a model for analysis, and it is one of the Algerian novels that dived in the depths of the unknown, pushing the reader to enter these narrative worlds, when In it, who wrestled with the abnormal and rational forces with human reality, so how do the novel express reality? How is the novel inspired by the miracle material? And therefore we find that this novel is based on a purely imaginary perspective, which exceeds the Algerian reality in a miraculous

way, so that the miracle appears clearly in the characters of the novel, with its strange strange world.

Keywords: Algerian reality «realistic» «miraculous», imagined «space» transformations.

1. مقدمة:

تعد النصوص السردية من بين أكثر المسالك التي يتخذها الكاتب والمبدعون للتعبير عن خبايا النفس، وكثيرا ما يلجئون إلى التاريخ لتقريب الحدث أو الواقعة في شكل عجائبي، فالرواية عبارة عن استعراض للحياة اليومية بكل مشاكلها وقضاياها وشخصها، هي ليست ما يكتبه المؤرخون وإنما هي تخيل يمكن له أن يوظف أدوات ومادة من التاريخ دون أن تكون هذه النصوص تاريخية، حيث يلتقي التاريخ مع السرد مما يمنح للرواية أسلوبا حرا غير مقيد للتعبير عن أحداث واقعية.

وهذا ما يطرح الأسئلة التالية: كيف تعبر الرواية عن الواقعي؟ وكيف تستلهم الرواية المادة العجائبية؟ وهل يهتم الروائي بالتطابق بين المتخيل والحقيقة؟، وهل يعيد الروائي كتابة وسرد الواقع بأقنعة متنوعة وفق شروط محدّدة؟ للإجابة عن كل هذه التساؤلات اخترت رواية "سرادق الحلم و الفجيرة للروائي عز الدين جلاوي الرواية التي كتبت لتعبر عن واقع الجزائر بعد العشرية السوداء، هذا المتن الذي ولد في دهاليز التكتّم خلف جدران الظروف السياسية الصعبة، ما يدفع الروائي إلى الحديث عن جراح الصامتين وآلام المثقفين المتعلمين في تلك الفترة من الزمن بأسلوب عجائبي ممتع يستحقّ منّا المتابعة والدراسة والبحث.

2. واقع الكتابة الروائية الجزائرية:

إنّ العالم الخيالي بالنسبة للروائي هو وجهته التي يعبر عنها بشتى الطرق والوسائل، فهّمه الوحيد هو إيصال رأيه وحسب، فقد استطاعت الرواية المغربية والجزائرية على وجه الخصوص التأسيس لخيال مجتمعي يعكس جماليات الكتابة الروائية، في معالجة عدة موضوعات بمشاعر متحوّلة للوصول إلى المعاني الخفية والضائعة ضمن لعب تخيلي ممزوج بأدوات واقعية.

وهنا تصبح الكتابة بحسب "بول ريكور" استمرارا للأنطولوجيا التي تقوم عليها الكتابة التاريخية من أصالة السرد الموضوعي الصادق، و"من هنا ننطلق من أطروحة مفادها أن الواقعي

والعجائبي مرتبطان بوعي الإنسان وما يتخيله، أو ما له صلة بتاريخانيته، فإذا كان الأدب شكلا من أشكال التعبير الفني الواعي بالتجربة الإنسانية، لكنه شكل منتج للمدلولات المتعددة، هذه المدلولات المحملة بأفكار لا تكون عائمة ومطلقة، والملاحظ أن العلاقة بين الرواية والواقع لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها بما أن الواقع هو مركز التواصل والاتصال.

1.2 الرواية الواقعية في الجزائر:

بعد أن واكبت الرواية الجزائرية الواقع ونقلت مختلف التغيرات التي طرأت على المجتمع بحكم العوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغيير، وبعد أن اتخذت منحى ثوريا، خاصة بعد الاستعمار كما ساءرت النظام الاشتراكي وهذا ما نجده في عقد السبعينات، ثم بعد ذلك دخلت الرواية في مراحل متذبذبة، بين مد وجزر وبين نضال وانهمام، لينطلق الكاتب الجزائري على وجه الخصوص من واقع مرير مليء بالحسرة والألم، واقع عاشه وعائشه الجزائريون، فامتألت جعبتهم بهوم لازمهم طيلة حقبة زمنية متفاوتة.

يظهر جليا من خلال ما سبق أن الرواية الجزائرية شديدة المحلية تهتم بالوضع الداخلي للوطن بحيث يتضح لنا أيضا أن هموم الفرد الجزائري مرتبطة كل الارتباط بالرواية والمتصفح لها لا يفوته ذلك إذ تحتل الواقعية مساحة ممتازة من النتاج الروائي الجزائري.

كما "ساعدت ظروف الجزائر بعد الحرب العالمية على ظهور المذهب الواقعي في الرواية الجزائرية"¹ وقد تأثرت الرواية بظهور وشيوع مصطلح الواقعية في أوروبا الذي أعلنه بلزاك HONRORE De BALZAK في مجموعته الضخمة "الكوميديا البشرية" إنَّ ضغط الواقع وتفاعل الكتاب معه، هو الذي أبعدهم عن نظرية الفن للفن وبما أنَّ الكاتب له شعور وفكر يميزه وخيال يرسم به معالم رواياته وفق مهاراته الفنية على تصوير هذه الحياة برؤية جديدة تختلف عن البدايات الأولى للرواية الجزائرية يتميز بها إيديولوجيا وجماليًا.

إنَّ أهمَّ ما يميّز الرواية الجزائرية هو الارتباط الشديد بالواقع، فهو موضوعها الأساسي إن لم نقل الأوحده، "حيث تتجسّد في حياة الإنسان بيئة معيّنة وفي وضعه الاجتماعي بما يطبعه من بؤس أو رخاء، وعلائقه بالإنسان والأرض وموقفه من الأنظمة والقوانين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وأخيرا في مشاعره وأحاسيسه وعواطفه إنّه واقع واسع يشمل مظاهر الوجود الإنساني في مجتمع معيّن"².

لقد تمحورت الكتابات الجزائرية حول قضايا مختلفة، بداية بواقع الكفاح المسلح ثم الثورة الزراعية ثم واقع النقد الذاتي ثم واقع الاغتراب عن الوطن، وعبرت أيضا عن جوانب عديدة منها: الاجتماعي والإيديولوجي الماركسي وغيرها، فقد عبّر الكتاب والروائيون عن خباياهم وتطلعاتهم بوجودهم وانفعالاتهم.

فإذا كانت الرواية الواقعية عبارة عن محاكاة لهذا الواقع، إذن هي التي ترصد لنا أخبار المجتمع ومراميّه وترسم معالمه بتقريب الصور والمشاهد، طارحة أسئلة جريئة ومتنوعة، قريبة إلى العقل والمنطق، سعيًا من المبدع لإيجاد توافق وانسجام لهذه الأفكار والإجابة عن كل التساؤلات، إلا أنه وفي كثير من الأوقات ما يذهب خياله الواسع إلى استخدام اللامألوف لتكون الرواية عجائبية متجاوزا بذلك الواقع إلى اللاواقع أو اللامنطق من خلال خاصيتي التعجيب والتغريب.

2.2 الرواية العجائبية:

على اعتبار أنّ الرواية فن مفتوح وسرد مرّن فضفاض، ما جعل منها قبلة للروائيين، حيث أبدوا لها اهتماما كبيرا خاصة في الآونة الأخيرة فهي ملحمة العصر، ما أدى إلى بروز أنواع متنوّعة ومتعدّدة لهذا الفن، له مواصفاته ومميزاته الخاصة، من بين هذه الأنواع الرواية العجائبية، التي هي شكل من أشكال السرد الجديد يتجاوز فيها الكاتب الإطار التقليدي للحبكة السردية، ليتبدى لنا من وراء ذلك ملمح التغيير والتجديد في الأسلوب شكلا ومضمونا، وإن لم تتغير الرواية العجائبية بشخصها بزمانها ومكانها.

وقد ارتبطت الشخصية بالأماكن المتنوعة التي أضحت منبعًا للحركة والحيوية، فهي تدعو القارئ إلى فهم انزياحاتها وفك رموزها وشفراتها، بلغة تدعوه إلى تجاوز المألوف والواقع والتمييز بينه فكانت لغة عجائبية تثير الاستغراب والتوتر والدهشة لدى القارئ، مما يعني قدرة الكاتب على استحضار الجانب الخيالي العجائبي الذي تميز بالخروج عن النمط المألوف، فكانت سرادق الحلم والفجعية رواية لكل الطقوس.

إنّ هذا النوع من الأدب ألا وهو الأدب العجائبي الذي وجد في كتب التاريخ كما هو معروف عند: الطبري والغرناطي والمسعودي... وغيرهم، وحتى في المؤلفات الصوفية مثل ما نجد "ابن عربي في فتوحاته المكّية وهو يصف عوالم عليا غريبة زارها.

وفي كثير من الأحيان ما يلجأ الروائي إلى أزمنة مضت وحكايات وقعت في الماضي، كما نجد في رواية سراق الحلم والفجعية أنّ الروائي قد اعتمد على فكرة المسخ، بحيث يتحوّل البشر إلى حيوانات، وهذا المسخ قد وجد في الملاحم، وأسند في القديم إلى طقوس وعقائد شعبية، مثل ما وجد في أول رواية عالمية جزائرية وهي: "الحمار الذهبي" لـ لوكيوس أبليوس، فقد كان الواقع ولازال يجعل من الروائي أو الأديب وعاء يفرغ فيه أفكاره و مشاعره لينسج لنا نصّا مغايرا عن واقعه ومعبرا في آنّ واحد عن وجوده.

وقد تأرجح مفهوم العجائبية بين مصطلحات مختلفة من أهمها الفانتاستيك، الفانتازيا، الأدب الاستهامي، الغرائبي، السحري، وعلى الرغم من الفروقات الواضحة بين هذه المصطلحات إلا أنّها تشترك كلها في كونها تدل على الخارق واللا مألوف والعجيب³.

والعجائبية هي انتهاك القوى غير طبيعية واللاعقلية لما هو مألوف وعادي في الواقع الإنساني. وتعبير آخر هو انزياح عن قواعد العقل ونواميس الطبيعة عن قصد وعمد، بل وثورة على الواقع وإدانتته له لبشاعته وغرابته، وبما أنّ العجائبي هو سبر لأغوار الواقع بوسائل غير واقعية وغير مألوفة، أي أنّه استجلاء للوجود بما ليس موجود، يبقى يحمل في طياته واقعا جديدا يشكل حضورا قويا في العديد من النصوص الروائية إلى جانب الواقعي بما أنّ الفن الروائي الحديث قد واكب في أوربا صعود البرجوازية وأسئلة الإنسان الذي يتأمل واقعه الجديد ويبحث فيه، والروائي العربي عموما والجزائري خصوصا يجد ضالته في الأعمال العربية القديمة، فهو يؤمن بالذاكرة التي يتلاقى من خلالها الوعي المخزن في أعماقه، بعد أن تتصاعد من لا وعيه لتصير ذات ملمح مميز ورائع.

ومنه فإن ذاكرة الشعب الجزائري كما أسلفنا الذكر سابقا تعج بالذكريات المريرة كحقيقة تتقاطع مع ماهو خارج اللاوعي حيث يوجد عالم آخر يتمناه الجميع عالم الحلم والمتخيل الذي يعبدنا عن الواقع المليء بالصراعات التي لا تكاد تنتهي في هذه الحياة يرسم لنا كل هذا، المبدع ليتركنا في حيرة من أمرنا بين الواقعي والوهم الذي تصنعه النصوص المرتبطة بالجانب الواقعي بشكل أو بآخر، وبحضوره القوي، يرى أبتر "Apter" والذي فضل مصطلح الفانتازيا على مصطلح العجائبي.

وبهذا يمكن القول أنّ العجائبي يشكّل قطيعة مع العالم الذي ينتهي إليه وبروزا مفاجئا لما هو معروف في الحياة اليومية، "إذ نجد العجائبية تتجلى في المتخيلات السردية على أشكال

عديدة من بينها: العمل على تبئير الإنسان و المكان والزمان، اتخاذ الأحلام والرؤى سبيلا للبناء الفني، الاعتماد على المفارقة والسخرية من المؤلف الواقعي عبر المكاشفة والخرق والمسح والتحوّل والتضخيم⁴.

3.لمحة عن العجائبية والواقعية في رواية سرادق الحلم والفجعية:

إذا بحثنا في مقومات الأدب العجائبي الذي يتميز بالخروج عن المؤلف والانزياح والذي يتجاوز الواقع إلى المتخيل ليكتب نصّا مترددا بين عوالم الحقيقة والمجاز، ما يجعل القارئ يندعش ليقف حائرا، وحسب رأي تودوروف فإنّ الذي اعتبر العجائبي وسطا بين جنسين أدبيين هما: الغريب والعجيب، فإنّ "سرادق الحلم والفجعية" واقعية في ظاهر عناونها عجائبية بامتياز في باطن منها، وذلك ما دفعني للبحث فيها وتأمل مميزات الإبداع العجائبي للواقع المؤلف.

وقد تناولت الرواية كل المميزات التي تدل على الوهم والواقع وتراوحت مواضعها بين المنطق واللامنطق بين الانسجام واللاانسجام، تعتمد أحداثا غريبة ومدهشة تحدث التردد والحيرة عند القارئ الذي يحاول أن يجد لها تفسيرا طبيعيا أو غير طبيعي.

فقد صوّرت لنا الرواية جملة من المتناقضات التي عاشها المجتمع الجزائري قديما وحديثا تجمع بين الحقيقة والأسطورة، تسبح في فضاءات عجيبة وسط كائنات استبدلها الرواي بغير البشر ليغوص في أعماق المجتمع وليرسم لنا حكايات عديدة لشخصيات متنوّعة تتداخل فيما بينها الأحداث.

والرواية الجزائرية عامة والجلابية خاصة قد ركبت موجة التجريب والحداثة السردية، كما استعانت بالعجائبية لتصوّر الواقعي على ما كان وما لم يكن، ولتعبّر أيضا عن تحولات الحركة الثقافية والاجتماعية فالرواية العربية طمحت إلى تفسير البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بطريقة تعكس الواقع وتعيّره وفي مسعاها هذا استندت إلى عوامل تخيلية لخرق أفق التوقع منها ما هو أسطورة أو خرافة.

فقلب الروائي الموازين رأسا على عقب، وذلك في بناء نسيج حكايات بصيغ جديدة قادرة على استيعاب الشرح ومنه الاستجابة لتقلبات الواقع.

1.3 اللغة والبناء الأسطوري:

تتأسس الرواية شأنها شأن الأسطورة انطلاقاً من عنوانها الذي يختصر معناها العام، على ثنائية كبرى وهي الحلم والفجيعة أو الأمن والخوف، ومنه فالرواية حكاية مقدّسة تروي تاريخاً مقدساً، ممّا يثقل كاهل المتلقي ويدفعه لقراءة ما بين السطور، بغية رصد انزياحات الرواية وفك شفرات الكتابة التي تميزت بلغة عجائبية، فأول ما يلفت انتباهنا ونحن نتصفح رواية "سرادق الحلم والفجيعة" هو لغة المتن الرمزية القائمة على التشفير.

واللغة عند "عز الدين جلاوي" تأسر القارئ في ساحة ساحرة من الواقع، كما نلاحظ الحضور الكبير للقرآن الكريم سواء على مستوى استدعاء قصص الأنبياء أو اقتباس اللغة القرآنية في الوصف أو التشخيص.

إذ نجده قد اخترق الأعراف اللغوية المتعارف عليها في الجنس الروائي فالقارئ للرواية يرى وبكل وضوح ذلك التلاعب بالعبارات بقدرة خارقة وعجيبة، والروائي جعل اللغة عجائبية تثير التوتر حيث يقول:

"الغربة ملح أجاج

وحدي أنا و المدينة

ثكلت الهوى ..ثكلت السكينة

لا ووردينموها هنا ..لا قمر ..لا حبيب

لا دقي في القلب الحزين

لا ولا شوق ..ولا غيث ..ولا حلم أمين ..

لا يبلسم من حبة القلب الأتّين

وحدي أنا والظلام .

وجدران تهاوت على القلب المعنى...

وغبار ثنائب يغتال من جواي السلام...

وحدي أنا والمدينة...⁵

فقد فرضت اللغة من خلال هذا المقطع عجائبية الواقع وعكست توترا فرضته سلطة المجتمع، بل وتجاوزته بأسلوب إبداعي عن طريق انزياحات وتجاوزات خلقت واقعا آخر، بشعرية سمت بجوهر اللغة فنجد لجأ إلى ما يعرف بأنسنة الحيوانات من أجل أن تكون بمثابة القناع للحقيقة التي يختبئ خلفها البشر، فأراد عز الدين بواسطة الحيوانات أن يرسل رسالة مثل ما فعل ابن المقفع في "كليلة ودمنة" وقد عمد إلى هذه التقنية ليعكس أيضا الواقع الجزائري المزري.

فقد كان الفأر والقط والنسر والغراب عبارة عن رموز لهموم الإنسان، فتأسست الأسطورة على تداخل الإنسان بالطبيعة وأنسنة الأشياء والجمادات ونسبة أفعال إنسانية إليها فتغدو المدينة امرأة عاهرة يقول: "تقهقه المدينة العاهرة في سمعي تهادى أمام بصري في ثوبها الشفاف... يتصافح ثدياها... شكوتها... تضرب على الأرض بكعبها... تدندن أغنيتها المفضلة"⁶.

كما نجد الماء الذي هو رمز الحياة والعطاء وهنا نلاحظ البناء الأسطوري حين يغسله "المجدوب" البطل ويعيد له حيويته بماء الشلال وينقيه من العفن الذي وجد بالمدينة المومس. وأمره بصنع الفلك والتخلص من لعنة الطوفان، فهو علامة أخرى من علامات الانهيارات التي يعيشها الواقع بعد أن تلاشت القيم الإنسانية في المجتمع الجزائري.

إنّ من وراء هذه العجائبية "إحياء دلالي بالرغبة في التجاوز والتعديل للموقف القائم"، بحيث يندمج العجائبي بالواقعي ووضع اليد على تناقضات الواقع كما نجد في رواية الحلم والفجعية حكايات خرافية لكائنات عجيبة تخلق جواً أسطوريا فيتراوح السرد بين فضح الواقع وإبراز تناقضاته. كما نجد في الرواية أيضا القلب اللغوي الذي يستند على تشويه المفردات واللعب بها، كما نجده يخلق تداخلا في روايته بين الأجناس الأدبية من الشعر إلى المسرح ممّا يجعل من اللغة الروائية طبقات ودرجات فهناك لغة شعرية تعبر عن مشاعر دفيئة ولغة صوفية ولغة شهادة، فتوزعت اللغة على عدّة مقامات منها:

مقام المناجاة والحنين، مقام الروح والحسرة ما جعل الشاهد على تلك المدينة "الواقع" يأخذ موقف العاجز عن التغيير للأوضاع المتدهورة، كما نجد مقام الأمل الذي يبدو السارد من

خلاله مفعما بالحلم وغير متأكد من محكيه، وهو ما يعطي مسحة فانتازية للأحداث ويزكي طابع الأحداث التي تقترب من الحلم وتبعد عن الحقيقة.

2.3 الشخصية الواقعية والعجائبية:

إنّ الشخصية في الرواية هي التي تتشكّل بتفاعلها مع الأحداث في المتن، فينتقي الروائي شخوص روايته بحكمة بحيث يجعل الشخصية المناسبة في المكان المناسب، ومن هنا نجد أن الشخصيات في الرواية تنقسم إلى قسمين:

إمّا إن تكون صادقة يمثّلها البشر أو متخيلة تتجسّد في الحيوانات أو الجمادات، وقد يجمع الروائي في خياله بين الحيوانات والجمادات، فنجد الشخصية الواقعية تقوم بعدة وسائل لتحقيق غاياتها فلكل شخص غاياته التي يسعى إليها، فمنهم من تكون غايته دينية كحبّ الانتقام وإيذاء الآخرين ومنهم من يسعى جاهدا لخدمة بلده ومجتمعه.

والشخصية العجائبية خليط بين أمشاج واقعية وغير واقعية وإن كانت الشخصية الواقعية أكثر حضورا في الرواية المعاصرة لأنّ جلّ الروائيين يعبرون عن الوضع المتأزم للإنسان المعاصر وعن واقع قلبت فيه الأمور كليا فتتعارض الشخصية العجائبية مع الشخصية الواقعية أو "العادية"، والراوي هو الشخصية العادية فقد استعمل ضمير المتكلم وهذا ما جعل النصّ قويا تجاوز من خلاله كلّ الأدوار ممّا أثار الدهشة والغربة للقارئ.

كما نجده يتقاطع مع دور الرجل الصالح الذي يقاوم الظلمات ويخرج الناس إلى النور ويريد أن يسود العدل والمساواة بين الناس، مدعما من قبل قوى غيبية تتمثّل في "لمجدوب" الذي يستمدّ منه الطاقة الروحية للاستمرار في محاربة القبح والفساد في الواقع، لكنّه نبي فاشل عاجز عن تغيير واقعه حسب تعبير السارد. ونلاحظ أنّ شخصيات الرواية كلّها عبارة عن حيوانات فقد رسمها "عز الدين جلاوي" وفق منظور جديد ورؤيا تتجاوز كل الأبعاد الداخلية والخارجية فبعثت شخصيات هذه الرواية على السخرية والاشمئزاز وترجمت الوضع السائد في البلاد.

3.3 تحولات الفضاء:

إنّ مفهوم الفضاء يتّسع ليشمل الزمان والمكان، فالفضاء هو الحيز الزمكاني الذي تتمظهر فيه الشخصيات والأشياء متلبّسة بالأحداث تبعا لعوامل عدّة تتّصل بالرؤية الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب⁷، تتبنى الرواية بناء دائريا الذي يتجلى عادة في المحكيات التي تبدأ من النهاية، رواية البحث عن الزمن المفقود، تعمل هذه البنية على تكسير الزمن وتكسير السير العادي للحبكة ويجعلها مغلقة على ذاتها، فنجد الروائي قد بدأ روايته بالخاتمة وانتهى بمقدّمة يذكر فيها بداية الحكاية، بحيث يؤكّد البناء الدائري أن الرواية لم تنته، بل تثبت على أنّها تخييل للواقع وليست وصفة سحرية لتقديم الحلول.

بل تقدّم فيه رؤية عجائبية للراهن، وتؤدي البداية بالخاتمة دورين وهما: تكسير خطية السرد وإثارة اهتمام القارئ. فقد أسس "جلاوي" للحيرة والتعجيب في الرواية إلى جانب الزمن العادي والمألوف، فكانت رؤيته مشقّرة للزمن الجزائري، الزمن الذي ضاعت مبادئه وقيمه وشاعت فيه الرذيلة بكل أنواعها، فقد كتب "جلاوي" عن زمن الظلام والموت، زمن جعله يخرج عن المألوف ليعبّر عن أحلامه في الفجيرة والخوف في مدينة البؤس والشقاء فهل يتحقق الحلم... لتزول المخاوف والفجيرة؟.

وقد استعار الكاتب فضاءات وأجواء أسطورية عجائبية مليئة بالمغامرات.

أما المكان فهو واقعي يمتاز بالعجائبية، حيث اقتربت الرواية من المحكيات الفلسفية وتصورات الفلاسفة حول مدينة فاضلة، أما المدينة في هذه الرواية فلا ينبع منها إلّا القبح والاستغلال والاستعباد، يسودها الموت والخراب والانحلال والرذيلة، حيث يقول: "لفتت انتباهي المدينة وهي تنهض متثاقلة من أمام المبوّلة وقد تبلّل شعرها بالعفن والعطن... فركت عينها تتأمل ما يقع في شوارعها وأزقتها... وخشيت أن تفتن لوجودي فأسرعت أبرح المكان، لقد داهمتني روائح كريهة مقرفة لا بد أن أستحم"⁸.

إذ تتحوّل المدينة من فضاء مدّس إلى فضاء مقدّس تمارس عليه طقوس العبادة بل يتحوّل المكان فيها إلى شخصيات روائية فاعلة تتجاوز وظيفتها الأساسية المتمثلة في كونها إطارا أو ديكورا، لتصبح عنصرا مهما من عناصر تطور الحدث فقد تحوّلت المدينة لتصير امرأة عاهرة تمارس العهر أمام المألّ تضرب الأرض بكعبيها فغدت مومسا همّها الوحيد إشباع غرائزها يقول:

"أيتها المدينة المومس"

إلى متى تفتحين ذراعيك للبلهاء ...؟

إلى متى ترضعين الحمقى والأغبياء...؟؟

إلى متى أيتها المدينة تمارسين العهر جهارا دون حياء...؟

فقد صوّرها الروائي بطريقة عجائبية بواسطة الترميز والتشفير، فتحوّلت الفضاءات المكانية في المدينة إلى شخوص تمارس أفعالا مثل: المقهى الذي هو فضاء مغلق يحيل على العجز والركود والتهيه والبالوعة التي تمس الحضارة بكل أشكالها.

لقد سعى السارد جاهدا ليرسم حلمه في ذلك الفضاء المليء بالعفن والأوساخ، يحلم في كل لحظة بمدينة فاضلة نقية بعد أن كانت تبج نفسها لكلّ المارين وكأنه يريد حلولاً بأقرب وقت للحالة التي آلت إليها مدينته، فكانت فجيرة ومصيبة ألمت به وفي نفس الوقت كانت هي المدينة الحلم، "جلاوي" عبّر عن الواقع الذي تعيشه الجزائر مختبئا وراء عجائبية الرواية وتخيله الذي رسم به وضعاً وحالة يرثى لها؛ لمدينة هاربة من لحظات الحبّ الرائعة والجميلة، فكانت هي الحلم والحقيقة، الحاضر والماضي، التي يهرب منها وإليها.

رتب "عبد الحميد هيمة" المكان إلى ثلاثة مراحل وهي: المدينة المومس، المدينة الحلم، ثمّ مرحلة الهزيمة ونهاية الرواية بانتصار المومس واستسلام البطل لغوايتها وسقوط المدينة الحلم، ولكن تم إنقاذها بتدخل المجدوب والطوفان وتطهيرها، وهناك تركيز قوي من الرواية على وضع المكان بين الماضي والحاضر وهو الذي يحفزنا على المقارنة وإبراز مدى ثبات المكان أو تحوّل، مع التأكيد على أنّ كلّ شيء جميل في الماضي على مستوى المكان تمّ تخريبه في الحاضر.

4. خاتمة:

ومن جملة ما سبق تبدو أحداث الرواية غريبة جدّاً لتقاطعها مع الأسطورة والرمزية؛ ولأنّها تسعى إلى تصوير الواقع بمنظور أسطوري عجائبي يحمل العديد من الدلالات المختلفة.

كما تكمن أصالة أي متن روائي في خروجه عن المألوف وتجاوز الأشكال السائدة، وذلك لا يتأتى إلاّ بأدوات الكتابة الروائية الجديدة مثل الانفتاح على النصوص الأخرى؛ فقد حوّل الروائي

"عز الدين جلاوي" السرد إلى لعب عبر تقنية القلب التي تطال مجموعة من المكونات مثل: "اللغة ، البناء ...

لايخلو أي نص سردي من الحديث حول الواقع وإن اختلفت الأشكال السردية، و"سراق الحلم والفجيرة" رحلة تجعل القارئ يمنح النص قراءات متعددة يتجاوز بها كل الحدود، بداية باللغة التي خلقت الواقع على ما كان وما لم يكن، والزمان الذي تحرك فيه الماضي والحاضر وتبعثر بين الظلمات والمآسي وبين الرذيلة والخطيئة في مكان يتنفس دمارا شاملا وخرابا مميتا ما يجعل الواقع ينهار أمام الخيال بكل ما للكلمة من معنى، مروراً بشخصيات الرواية التي أبدع في نسجها ورسمها فجعل الجماد ينطق من شدة وهول الفجيرة.

لقد صوّر لنا المبدع المدينة أيما تصوير، حيث عبّر فيها عن الواقع الجزائري بكلّ سخرية وبلغة عجائبية وأسلوب غرائبي، اهتم من خلال ذلك بتوظيف تقنيات السرد الحديثة ورصد حيثيات الراهن وبعث إشكاليات كثيرة، ووقف على العديد من الاستفهامات بنظرة استشرافية تبعث في نفس كل قارئ الدهشة والغربة ليعكس لنا حاضرا مريرا مليئا بالذل والحقارة، وربما مستقبلا مجهولا لا نعرف إن كان فجيرة أم حلما تتغير به الأحوال وتبدل فيه الأفكار.

5.الهوامش:

¹-أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية للنشر، تونس المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 56.

²محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984م، ص 290.

³- فيصل غازي النعيمي، العجائبية في رواية الطريق إلى عدن، مجلة تكريت للعلوم الإنسانية، مج11، ع9، جامعة تكريت، العراق، 9117.

⁴ ينظر: شعيب حليفي، هوية العلامات، ص 192.

⁵- عز الدين جلاوي، سراق الحلم والفجيرة، منشورات أهل القلم، ط1، سطيف، الجزائر، 2006، ص10.

⁶ -المصدر نفسه، ص 9.

⁷ -منيب البور يمي، الفضاء الروائي في الغربية، الإطار والدلالة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1982، ص 21.

⁸ -المصدر السابق، ص 86، 88.

6.المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية للنشر، تونس المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
2. محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984م.
3. فيصل غازي النعيمي، العجائبية في رواية الطريق إلى عدن، مجلة تكريت للعلوم الإنسانية، مج 11، ع9، جامعة تكريت، العراق، 9117.
4. عز الدين جلاوي، سرادق الحلم والفجيعة، منشورات أهل القلم، ط1، سطيف، الجزائر، 2006.
5. منيب البور يمي، الفضاء الروائي في الغربية، الإطار والدلالة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1982.